الوهابيون والحجاز

(١)

لو حدثت إغارة الوهابيين على الحجاز في عهد الدولة العثمانية لقامت قيامة العالم الإسلامي ولرأيت الجرائد العربية في الشرق والغرب والجرائد التركية والهندية والفارسية والتتارية والملاوية تشن عليهم غارة التضليل والتكفير، وتجمع الإعانات المالية لقتالهم بالقناطير، ذلك لِما كان لجماهير الشعوب الإسلامية من حسن الظن وقوة الرجاء بالدولة ومن سوء الظن بالوهابيين، أما وقد حدثت في هذا العهد فإننا نرى ضلع الرأي الإسلامي العام مع الوهابيين، لأن ما كان خفيًّا من قوة دينهم واعتصامهم بالسنة ورفضهم للبدع وكراهتهم للسلطة والنفوذ الأجنبي قد ظهر لخواص المسلمين، وبدأ يظهر لعوامهم، ولأن جميع الشعوب الإسلامية تمقت هذا الرجل الذي تولى أعداء الإسلام في الحرب والسلم، فنصرهم على المسلمين، واعتمد عليهم في طمعه في خلافة الإسلام وملك العرب تحت ظلهم وحمايتهم، فبمساعدته ومساعدة أولاده استولوا على البلاد العربية التي هي مهد حضارة الإسلام من حدود مصر إلى خليج فارس، ويحاولون جعل ما بقي للعرب من عقر دارهم في جزيرتهم المقدسة

تحت ظل تلك الدولة التي جعلته ملكًا مستبدًا في الحجاز، ليهون على أهله وضعه تحت سيادتهم مباشرة في يوم من الأيام، وسَمَّت أحد أولاده ملك العراق، وآخر منهم أمير الشرق العربي أو أمير شرق الأردن، ويطمع أن تسميه ملك فلسطين ليخضع لها مسلميها، كما آمنها من تعدي الأعراب المجاورين لها.

فقد ظهر لجميع شعوب العالم الإسلامي أن هذا الرجل وأولاده هم شر نكبة نُكب بها الإسلام في هذا العصر فصارت تتمنى زوال سلطته عن مهد الإسلام، ويرى أنه لا يُرجى لذلك غير هؤلاء النجديين البواسل الذين صارحهم هو بالعداوة والأذى بما جدد من دعاية سلفه الطالح من الطعن في دينهم ورميهم بالكفر، وادعائه أن الإسلام يوجب عليه قتالهم، والمصلحة العربية توجب عليه إخضاعهم لسلطانه، وجعلهم تابعين لملكه، ومنعهم من أداء فريضة الحج - على ما عُرف عنهم من إباء الضيم، وعدم الصبر على انتهاك حرمات الله - إلى تحَكُّمه ما شاء في إقامة ركن الدين الاجتماعي العام في بيت الله، وظلم من شاء فيه بالضرائب المختلفة وظلم أهله في كل شيء - فهذه أسباب الرجاء في النجديين بالإجمال[1]، لا حب التوسع في السلطان والتبسط في الملك الذي يرميهم به الشريف حسين هو

(١) وسيأتي بيانها بالتفصيل في المقالتين الثانية والثالثة.

ودعاته وجرائده من باب (رمتني بدائها وانسلت) ونحمد الله تعالى أن هؤلاء الدعاة قلّوا وقلّت الجرائد التي تنشر لهم إفكهم وبهتانهم.

ولكن بقي من الناس من يسيئون الظن بالوهابية، ويظنون أنهم أصحاب مذهب مبتَدع في الإسلام، وذلك بتأثير الدعاية المنتشرة منذ قرن وربع قرن في الطعن فيهم - وبتأثير انتشار البدع واشتهارها حتى صار بها المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فالآخذون بهذه البدع يعدون كل منكر لها وهابيًا، ويضيفون إلى ذلك ما حفظوه من البهتان الذي جدده الملك حسين في جريدته (القِبلة) من رميهم بتكفير من عداهم من المسلمين، وإنكار شفاعة النبي ﷺ، وتحريم الصلاة عليه وزيارة قبره كسائر القبور، بل تجرأ حسين المكي وأمثاله على رميهم بالطعن في شخصه الأكمل وتفضيل العصا عليه برأه الله تعالى ولعن كل مجترىء على مقامه الشريف.

هذه البهائت كان يبهتهم بها أمير مكة وأعوانه في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة عند ظهور أمرهم لتنفير المسلمين منهم، ولمَّا استولوا على مكة المكرمة سنة ١٢١٨ بقيادة الأمير سعود جمعوا علماءها - وفي مقدمتهم مفتي الحنفية ومفتي المالكية - وبينوا لهم مذهبهم وخطتهم في تجديد دعوة الإسلام، فوافقوهم عليها وذكروا لهم ما كان أذيع من الطعن الذي أشرنا إليه آنفًا فتعجبوا وتبرءوا منه.

إننا لم نر أحدًا من البهَّاتين الذين يطعنون فيهم ينقل شيئًا من كتبهم، ونحن في بياننا للحقيقة ننقل من كتبهم ومن كتب غيرهم، ولا نقول شيئًا من عندنا بغير دليل.

بيان الوهابية لمذهبهم:

جاء في رسالة للشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد صاحب الدعوة وصف فيها دخول جماعتهم مكة مع الأمير سعود سنة ١٢١٨، ومناظرتهم للعلماء فيها وإعطاءهم رسائل والده الشيخ محمد عبد الوهاب: أنه كان مع علماء مكة الذين حضروا مجالسه حسين الابريقي الحضرمي ثم الحياني وكان يسأل عن أصل هذه الدعوة ويجيبونه، فنذكر أهم ما قاله الشيخ عبد الله وهو ما نصه:

«فأجبناه بأن مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقتنا طريقة السلف التي هي الطريق الأسلم والأعلم والأحكم، خلافًا لمن قال: طريقة الخلف أعلم. وهي أننا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها، ونَكِل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها، فإن (مالكًا) وهو من أجل علماء السلف لَمَّا سُئل عن الاستواء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ثم قال: «ونحن أيضًا في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون غيرهم» إلخ (ص ٤٤ من كتاب الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية).

ثم قال: «وأما ما يُكَذَّب علينا سترًا للحق، وتلبيسًا على الخلق، بأنا نفسر القرآن برأينا، ونأخذ من الحديث ما وافق أهواءنا، من دون مراجعة شرح، ولا تعويل على شيخ، وأنا نضع من رتبة نبينا محمد ﷺ بقولنا النبي رمة في قبره، وعصا أحدنا أنفع لنا منه، وليس له شفاعة، وأن زيارته غير مندوبة، وأنه كان لا يعرف معنى لا إله إلا الله حتى نزل عليه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، مع كون الآية مدنية - وأنَّا لا نعتمد على أقوال العلماء، فنتلف مؤلفات أهل المذاهب، لكون فيها الحق والباطل - وأنا نكفر الناس على الإطلاق، أهل زماننا ومن بعد الستمائة إلا من هو على ما نحن عليه - ومن فروع ذلك أنَّا لا نقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه أنه كان مشركًا وأن أبويه ماتا على الشرك بالله، وأننا ننهى عن الصلاة على النبي ﷺ ونحرم زيارة القبور المشروعة مطلقًا، وأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون - وأنَّا لا نرى حق أهل البيت رضوان الله عليهم» إلخ.

ثم قال: «فجميع هذه الخرافات (أي التقولات) وأشباهها لمَّا استفهمنا عنها من ذكر أولاً، كان جوابنا في كلْ مسألة من ذلك

﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور]. فمن روى عنا شيئًا من ذلك أو نسبه إلينا، فقد كذب علينا وافترى، ومن شاهد حالنا، وحضر مجالسنا، وتحقق ما عندنا، عَلم قطعيًا أن جميع ذلك وضعه علينا وافتراه أعداء الدين، وإخوان الشياطين، تنفيرًا للناس عن الإذعان بإخلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة، وترك أنواع الشرك الذي نص الله عليه بأن الله لا يغفره ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» إلخ (ص ٤٦ من الهدية).

ثم قال: «والذي نعتقده أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه، وتُسن زيارته، إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه، وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس. ومن أنفق نفيس أوقاته بالاشتغال بالصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكُفي همه وغمه كما جاء في الحديث عنه، ولا ننكر كرامات الأولياء، ونعترف لهم بالحق وأنهم على هُدى من ربهم متى ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لا يستحقون شيئًا من أنواع العبادات لا في الحياة ولا بعد الممات» إلخ ما فصل به ذلك الإجمال من إنكار ما بُهتوا به. فمن شاء التفصيل فليطالع (الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية) وهي توزع في مكتبة المنار بغير ثمن.

وقد كنت لدى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في أوائل الشهر الماضي فذكرت الوهابية وسبب الطعن فيهم وكان من حاضري المجلس الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان والأستاذ الشيخ محمد شاكر والأستاذ الشيخ أحمد هارون والأستاذ الشيخ الظواهري وغيرهم من كبار العلماء، فبينت لهم تاريخ المسألة ومن كتب فيها على بينة من المؤرخين عند استيلاء الأمير سعود على الحجاز، ثم ذهب أحد سعاة سكرتارية الأزهر إلى مكتبة المنار، فجاء بعشرات النسخ من (الهدية السنية) ووزعت عليهم، وقرأ الأستاذ الأكبر ما نقلناه هنا وما فُصِّل فيها مما لم ننقله، واعترف بأنه مذهب أهل السنة والجماعة إلا أنه قال: إن حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» قد أوله العلماء، قلت: وهم قد أخذوا بظاهره تبعًا لبعض المحققين من علمائهم - أعني الحنابلة - وأزيد أن بعض الشافعية والمالكية حرم شد الرحال لزيارة قبور الصالحين كالإمام الجويني والد إمام الحرمين، واختاره القاضي عياض في شرحه لصحيح مسلم كما نقله عنه النووي، فأخذ الوهابية بذلك لهم سلف فيه وليسوا أول من قال به.

شهادة التاريخ للوهابية:

نكتفي هنا بشهادتين عادلتين لمؤرخين كبيرين نقلاً عن العدول المعاصرين لظهور الوهابية واستيلاء أمير نجد بقوتهم على الحجاز:

(الشهادة الأولى) قال المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الأزهري في أول حوادث سنة ١٢٢٧ من تاريخه نقلاً عن بعض أكابر رجال جيش محمد علي باشا الذين قاتلوا الوهابية في الحجاز ما نصه:

«ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يَدَّعون الصلاح والتورع: أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبًا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عُرُضَينا[1] أذان ولا تقام فيه فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يعني الوهابية) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم (؟) أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون، والمستبيحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غير مختونين» اهـ (ص ١٤٠ ج ٤ من الطبعة الأميرية) وفيه من فظائع العسكر وفواحشه ما لا حاجة إلى ذكره.

---

(١) أي في جَنَاحَيِّ جيشنا. (فؤاد).

ومن المعلوم أن جيش محمد علي كان أخلاطًا من شعوب وملل شتى، ولم يكن مؤلفًا باعتبار أنه جيش إسلامي يقيم شعائر الإسلام ويحافظ على فرائضه ويراعي أحكامه في القتال وغيره، بل لم يكن جيش الدولة العثمانية المنظم كذلك وهي التي كانت توصف بأنها دولة الخلافة. وأما ظن ناقل الخبر للجبرتي أنهم لا يُنصرون وحالتهم ما ذكر فسببه أنه يعتقد أن الفسق يمنع النصر، وليس كذلك فإن من استوفى أسباب النصر من كثرة العسكر ونظامه وعدته ينتصر على من ليس كذلك.

(الشهادة الثانية) - ما جاء في كتاب (الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى) للعلامة الشيخ أحمد الناصري السلاوي، فإنه ذكر في الجزء الرابع منه خبر وصول كتاب صاحب الحجاز عبد الله بن سعود الوهابي إلى فاس، وخلاصة وجيزة عن أصل الوهابية لا تخلو من غلط، ثم ذكر أن سلطان فاس أرسل جواب ذلك الكتاب مع ولده الذي سافر مع بعض العلماء إلى الحجاز وهذا نص خبره (ص ١٤٥ من الجزء الرابع المطبوع بمصر) قال:

حج المولى أبي إسحاق إبراهيم بن السلطان المولى سليمان رحمه الله

(وفي هذه السنة) أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا إسحق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي

الذى جرت العادة بخروجه من (فاس) على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما، فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران، والفقيه الشريف البركة المولى الأمين ابن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي، وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه، فوصلوا إلى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة، على حين تَعَذُّر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين يومئذ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمور حجهم وزيارتهم إلا على مقتضى مذهبهم.

(حكى صاحب الجيش) أن المولى إبراهيم ذهب إلى الحج واستصحب معه جواب السلطان، فكان سببًا لتسهيل الأمر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقًا وغربًا حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان والبر والإحسان، قال: حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة أنهم ما رأوا من ذلك السلطان (يعني ابن سعود) ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه ما به الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام،

من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهارًا من غير نكير. وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لمَّا اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته.

وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو إسحق إبراهيم الزدّاغي، فكان من جملة ما قاله ابن سعود لهم: إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة؟ وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا؟ فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوي. فقال لهم: معاذ الله إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. فهل في هذا من مخالفة؟ قالوا: لا وبمثل هذا نقول نحن أيضًا.

ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ وحياة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم. فلمَّا سمع ذِكر النبي ﷺ ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه، وقال: معاذ الله إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره وكذا غيره من الأنبياء، حياة فوق حياة الشهداء.

ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وزيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها. فقال: معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لمَّا عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها؟ وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضي لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة، ويستشفع به إلى الله تعالى يسأل الله المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت، إن كان ممن يليق أن يستشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل ﷺ، ولمَّا كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سدًّا للذريعة، فأي مخالفة في هذا القدر. اهـ. ثم قال صاحب الجيش: هذا ما حدّث به أولئك المذكورون، سمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفرادًا فاتفق خبرهم على ذلك. اهـ.

وذكر المؤلف (صاحب الاستقصا) بعد هذا الخبر بحثًا في زيارة القبور رجح فيه القول بمنع زيارة الأولياء سدًّا للذريعة مع بيان العلة وإشهارها بين الناس، وذكر أن سلطان المغرب المولى سليمان رحمه الله كان يرى هذا وألف فيه رسالته المشهورة، وأن الشيخ الفقيه الصوفي أبا العباس التيجاني كان يرى هذا ونهى أصحابه عن زيارة الأولياء. اهـ ملخصًا.

والشيخ أحمد التيجاني المذكور قد انتشرت طريقته في جميع بلاد المغرب الأقصى والأدنى وما بينهما حتى أن أتباعه يُعدون بالملايين إلى هذا العهد[1].

وما نقله من كلام الأمير الوهابي في مسئلة الاستشفاع معزوًا إلى الإمام أحمد يظهر أنه لم يُنقل بحروفه، فإن الإمام أحمد ﷺ لا يُعرف عنه ولا عن علماء الوهابية مثل هذا القول فيما نعلم والله أعلم.

وسنبين في مقال آخر أن المتغلب على الحجاز اليوم هو الذي يُكفر المسلمين، الذين يعاديهم ويعادونه، فقد كفَّر الترك والمصريين كما كفَّر الوهابية ونبين أن ما فعله النجديون من الزحف لإنقاذ الحجاز من بغيه هو من فروض الكفاية على الأمة الإسلامية قد قاموا به، فإذا ظفروا ارتفع الإثم عن جميع المسلمين وإلا وجب ذلك على غيرهم.

***

(١) ولكن الناس لم ينكروا على هؤلاء كالوهابية لسببين؛ أحدهما: أنه ليس لهم خصوم سياسيون يغرون الناس بهم كما يفعل أمراء مكة بالوهابية. والثاني: أن الوهابية منعوا المنكرات بالفعل لا بمجرد القول، وهذا ما لا يطيق احتماله أهل البدع لأنه يفضحهم.